منطلقات الحجاج في قصيدة المتنبي (الرأي قبل شجاعة الشجعانِ)

أ.د. لطيفة عبد الرسول الضايف الجامعة المستنصرية

إنَّ اختيـــار المنطلقات الحجاجية يتجلى في قوة حضور الحقل المعجمي الخاص بمقـــام الخطاب، وقد جنح المتنبي في قصيدته هـــذه إلى جعل الحقل المعجمي رافدًا مركزيًا في اختيار البراهين والاستعارات التي يحتج بها ويستدل.

وفكرة الحجاج بمنطلقاته التي عرضها بيرلمان لم تكن خفية عن التراث العربي لكن ينقصها الدراسة والتجميع وإعادة القراءة ضمن منهج يسمح لها الخروج بحلّة جديدة، وبأدوات معرفية حديثة.

Premises of Argumentation in Almutanabi's poem "Opinion comes before the courage of the bold"

Conclusion

The choice of argumentative premises is evident in the strong presence of the lexical field of the position of the discourse, and al-Mutanabbi succeeded in this poem to make the lexical field a central tributary in choosing the proofs and metaphors that he invokes and infers.

And the idea of pilgrims with its principles presented by Perelman was not hidden from the Arab heritage, but it lacks study, compilation and re-reading within a curriculum that allows it to come up with a new look and modern cognitive tools.

المقدمة:

يعدُّ الفيلسوف البلجيكي(شاييم بيرلمان) أنَّ القاعدة العامة والمبدأ الاساس للتأثير في المُستمَع هو تكَّيف المُتكلِّم مع المُستمَع؛ وإنَّ الوسيلة الرئيسة في هذا التكَّيف هو أنْ لا يختارَ المُتكلِّم نقطة انطلاق حجاجية إلا من مقدمات مقبولة ومُسلّم بها من قبل من يوجه إليهم الخطاب (بنو هاشم، 2014: ينظر: 41)، وهو يرى أنَّ الغاية من الحجاج ليس تقديم الدليل على أن النتيجة صادقة انطلاقا من صدق المقدمات، بل الغاية هي نقل القبول الحاصل عن المقدمات إلى النتائج، أي نقل ما تتمتع به المقدمات من قبول إلى النتائج، ويضع (بيرلمان) شرطا على المُتكلِّم أنْ تكونَ انطلاقاته من مقدمات مقبولة بشكل كافٍ من المُستمَع بذلك يكون هذا الانطلاق حبلا متينا بين المقدمات والدعاوى التي يسعى المُتكلِّم إلى جعلها مقبولة (بنو هاشم، 2014: ينظر: 41).

فالمُتكلِّم الذي لا يأخذ بالحسبان في حجاجه مدى قبول مستمعه للمقدمات التي ينطلق منها يرتكب ما يعدُّه بيرلمان أفظع خطأ في الحجاج ؛ ألا وهو المصادرة على المطلوب.[1]

وقد أكدَّ بيرلمان على التفريق بين صدق الدعوة وقبولها ؛ فقد تكون الدعوة على الرغم من صدقها غير مقبولة من المُستمَع، وقد حثَّ كثيرًا في مصنفه (مُصنَّفٌ في

(1) تعني في الحجاج أنْ يبني الخطيب حجاجه على مقدمات يتوهم أن المستمع يتقاسم بها، في الوقت الذي تكون فيه هذه المقدمات مجادلا فيها.

الحجاج – البلاغة الجديدة) ينبغي على المُتكلِّم أن يتكَّيف مع مستمعه ؛ لكي تكون استدلالاته نافعة، وألّا يختار مقدمات حجاجه إلا مما يكون مستمعوه متفقين عليها، ومن ضمن مواد الاتفاق التي يستمد منها المُتكلِّم مقدماته، يمكن التمييز بين مواد تعود إلى الواقع، هي الوقائع والحقائق، والمظنونات وبين ما يرجع الى الافضل وهي القيم والترتيبات ومواضع الأفضل (بنو هاشم، 2014: ينظر: 42)، سوف نقف عند هذه المقدمات عند تحليل قصيدة المتنبي في ضوء معطيات منطلقات نظرية الحجاج التي طرحها بيرلمان ؛ ليكون البحث أحد أهدافه تأصيل هذه المنطلقات الحجاجية الحديثة في الفكر العربي، ومنها هذه القصيدة.

المقطع الأوّل:

1 – الرَأيُ قَبلَ شَجاعَةِ الشُجعانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثاني

2 – فَإِذا هُما اِجتَمَعا لِنَفسٍ حُرَّةٍ بلغَت مِنَ العَلياءِ كُلَّ مَكانِ

3 – وَلَرُبَّما طَعَنَ الفَتى أَقرانَهُ بِالرَأيِ قَبلَ تَطاعُنِ الأَقرانِ

4 – لَولا العُقولُ لَكانَ أَدنى ضَيغَم أَدنى إِلى شَرَفٍ مِنَ الإِنسانِ

في هذا النص أنّ نجد الشاعر يقدم منطلقات الحجاج، وقد بدأها بالوقائع التي أشار إليها (بيرلمان)، والتي تعني ((ما هو مشترك بين عدد كبير من الكائنات المفكِّرة، ويمكن أن يكون مشتركا عند الجميع)) (بنو هاشم، 2014: ينظر: 43)، فقد حاول الشاعر تعظيم الرأي، وإقناع مخاطبه بقوة الرأي الراجح، وهذا الحاصل الاعتقادي تكاد تشترك فيه الجموع المستمعة لخطاب الشاعر؛ لذلك يسهل على من يتلقاه استساغته ؛ لأنه مشهور، وراسخ لا يتطلب برهانا بالعقل، ولا تثبيتا بالمنطق، بل إنّ المتلقي رسخت عنده هذه الوقائع، كما رسخت عند الشاعر، وهذا عين ما كان

يريد قوله بيرلمان:و هو أنْ لا يختــارَ المُتكلِّم نقطة انطلاق حجاجية إلّا من مقدمات مقبولة ومُسلّم بها من قبل من يوجه إليهم الخطاب.

؛لذا نجد الواقعة التــي يؤمن بها المتلقي أنَّ الرأي الناجع والمدروس يتفوق على شــجاعة الشجعان، وقد أضاف الشاعر الشجاعة الى الشجعان، وهذا توظيف يريد منــه التأثير في المتلقي، وإن كان المتلقي قد عرف هذه الواقعة وفهمها ووعاها،إلا أن ربطها بحقيقة ناجعة ألا وهي شجاعة الشجعان، ثم يقدم حجة ثانية اجتماع الرأي مع شجاعة الشجعان، وهذا التدرج بالحجج واحد من أهم وسائل الاقناع الذي يسعى الشــاعر إلى الوصول إليها، أو كما يقول بيرلمان: ((جملة التقنيات الخطابية التي تمكن مســتعمليها من إثارة الاعتقاد أو ترســيخه في العقول من خلال أطروحات مقدمة وأقــوال معروضة)) (علــوي: 529), وهو ما أراد المتنبي قوله، ثم واصل الشــاعر ترتيب حججه من عرضه حجة ثانية تســتمد قوته من الحقائق التي عدَّها بيرلمان من منطلقات الحجاج، وقبل أن نذهب إلى تحليل البيت حجاجيا وفقا لمنطلقات بيرلمان دعنا نســتمع لما يقوله حازم القرطاجني في فهــم النّص، ونضجه في التراث العربي: ((ويجب أن يرادف البيت الاول من الفصل بما يكون لائقا به من باقي الفصل؛ مثل أنْ يكونَ مقابلاً له على جهة من جهــات التقابل، أو بعضه مقابلًا لبعضه، أو يكون مقتضى له ؛ مثل أنْ يكونَ سببًا عنه، أو تفسيرًا له، أو محاكي بعض ما فيه ببعض ما في الآخر، أو غير ذلك من الوجوه التي تقتضي ذكر شيء بعد شيء آخر وكذلك الحكم في ما يتلى به الثاني والثالث إلى آخر الفصل)) (القرطاجني، 1986: 290) والعلاقات المعنوية كما ينصّ حازم القرطاجني في الفصل، والفصل مجموعة من الأشطر الشعرية المنسجمة فيما بينها التي تمتاز من المجموعات الاخرى في القصيدة من خلال المؤشر الــدلالي الذي يحدد لنا نواة دلالية في المقطع تســمح لنا بوضــع فكرة فرعية له أمام مجموعــة أفكار تطرحها المقاطع الاخرى أو بتعبــير القرطاجني الفصول، والفصل

في تصورنا هو مقابل للمقطع عند المحدثين، وهذا مما يحويه التراث العربي من كنوز تحتاج إلى التبصر والتوثيق، وإذا أردنا المقاربة أكثر نجده يقارب معيار الانسجام احد أهم معايير النصيّة التي حدَّهما (روبرت ديبو جراند وولفجانج دريسلر).

وعــوداً على بدءٍ، نجد المتنبي يقدم في البيت الثاني حجة اكثر نجاعة وهي الجمع بين الرأي وشــجاعة الشــجعان وجمعهما من الحقائق التي عرفهــا المتلقي ووعاها، وينبغــي لنا أن نعرض رأي (بيرلمان) في تفريقه بين الوقائع والحقائق التي عدَّها أهم منطلقات الحجاج فهو يربطها بمفهوم الوقائع، لكن الفرق بينهما أن ((الوقائع تعيّن مواد اتفاق دقيقة ومحصورة، في حين أن المقصود بـ (الحقائق) أنها أنساق أكثر تعقيدًا، تتعلق بصلات بين الوقائع سواء تعلق بنظريات علمية أو تصورات فلسفية أو دينية تتجاوز التجربة)) (بنو هاشــم، 2014: 43)، لما كانت الحقائق قائمة على الربط بين الوقائع، ومدارها عــلى النظريات والمفاهيم علمية كانت أم فلســفية أم دينية بدت في البيت الثاني تصورا لجمع هاتين الفضيلتين الذي يرى الشــاعر، ومعه المتلقي اذا اجتمعا حققا المطلوب، وهذه الحقيقة يعرفها المتلقي وآمن بها، وقد سمع واطلع على تاريخ الممدوح الذي استحضر المتنبي صورته من غير ذكر اسمه تمهيدا لتقديم حجة أخــرى يريد أن يقنع مخاطبه بها انطلاقا من مقدمات حجاجية وعاها المتلقي بدرجة مقاربة لما يعرفها الشــاعر، والمتلقي مقتنع أن نجاعة الرأي مع الشجاعة اجتماع من الندرة أن يتمتع بهما انســان، واذا حدث فهذا شيء غاية في العجب والاستحســان، إذا اشترك الرأي القوي والشجاعة؛ لبلغَ الشخص الذي توافقت فيه هذه الصفات المجد، وأصبح له شأن كبير بين الناس، ورُبَّما غلب الفتى أعداءه بسدادِ رأيِه قبل أن يغلبَهم بالسيف والنزاع والقتال.

إن اســتعمال المتنبي للفظ رُبَّما في البيت الثالــث كأنه وعى التدرج في الحجج وكذلك

منطلقــات الحجاج التي حدَّها بيرلمان، إذ وظّف الشــاعر المظنونات التي تعدّ واحدة من منطلقات الحجاج، والتي تحظى شأنها شــأن الوقائع والحقائق بموافقة المتلقي للمتكلم، ويــرى بيرلمان ((أن المظنونات ليســت بنفس وثوق الوقائع والحقائــق إذ من الممكن أن تكذبها الوقائع ؛لأن المفاجئ وغير المتوقع يبقى واردا على الدوام)) (بنو هاشــم، 2014: 44)، وهذا عينه ما قصده المتنبي باستعماله(رُبَّما) التي هي معروفة لدى المتلقي أن استعمالها يضــع المتكلم في الاحتراز من الوقوع في مصادرة المطلوب كما يقول بيرلمان،أي: إنّ (رُبَّما) دلالتها على المظنون،وإن كلَّ تلك الدلالات الأخرى إنَّما هي فرعية منبعها مقصد المتكلم، وهذا أمر معروف في الاســتعمال اللغوي، قد وعاه المتلقي ,إذا أخذنا بالحســبان، وعلمنا أن هناك متلقيا كونيا ومتلقيا خاصا ومعظم شــعر المتنبي موجه لجمهور خاص (الممدوح وحاشــيته) وإذا عرفنا أنّ من حاشية ســيف الدولة الحمداني ابن جني بذلك طبّق المتنبي المنطلق الثالث من منطلقات الحجاج (المظنونات) في هذا البيت.

والمظنون بوصفه شكلا من أشكال المنطلقات الحجاجية التي عليها يُبنى المحاجُّ حجاجه انســاقا وصورا، لأنّه من كون المتلقين موافقة وطاعــة، ويقول ربَّما غلب الفتى أعداءه بســدادِ رأيِه قبل أن يغلبَهم بالســيف والنــزاع والقتال، ثم يختم هذا الفصل بتعبير القرطاجني بحقيقة لا يســتطيع المتلقي الردّ على هذه الحجة أو لنقول هذه المقدمة

وهي أن ما يميز الانسان هو العقل وأنّ الشــجاعة متوافرة عند الأُسود، ولو كانت بالشجاعة لكان الاســد سيِّد الموقف، واختيار لفظ الضيغم للمقارنة؛ لأن فيها تقبلا من لدن الجمهور، ولا يجد فيها المتلقي اعتراضا على صاحب الحجة، أو كما يقول بيرلمان مصادرة المطلوب، يبــدو أنّ المتنبّي أقرب إلى عدم التزام منطقه النظــري، وهو في موضع تتجاذب فيه منظومته الفكريّة الذاتيّة والمنظومة الفكريّة

الـثـّـقـافـيّـــة العربيّة الممجّدة للقوّة، وكذلك المنظومة الفكريّة الإنسانيّة العامّة الّتي تقرّ بأفـضـلـيّـــة العـقـــل و مركزيّـتـــه، وهذه المرجعية الاعتزالية تبدو لها وقعها في شعر المتنبي، ولكنه لا يظهرها إظهار شيوخ المعتزلة، ولا ننسى أنَّ المتنبي في هـــذه القصيدة ويبدو للباحث في جلّ قصائد المدح يضع ذاته ويمدحها ويجعل لها إسقاطا[1] على شخصية الممدوح.

المقطع الثاني:

5 – وَلَمَا تَفاضَلَتِ النُفوسُ وَدَبَّرَت أَيدي الكُماةِ عَوالِيَ المُرّانِ

6– لولا سمِيّ سيوفه ومضاؤه لما سُلِلنَ لكُنّ كالأجفان

7 – خاضَ الحِمامَ بِهِنَّ حَتّى ما دُرى أَمِنِ اِحتِقارٍ ذاكَ أَم نِسيانِ

8 – وسعى فقَصر عن مداه في العُلى أهلُ الزمان وأهلُ كل زمان

9 – في جَحفَـلٍ سَـتَرَ العُيونَ غُبـارُهُ فَكَأَنَّما يُبصِرنَ بِالآذانِ

10 – يَرمـي بِها البَلَدَ البَعيدَ مُظَفَّر كُلُّ البَعيدِ لَهُ قَريبٌ دانِ

11 – فَكَأَنَّ أَرجُلَها بِتُربَةِ مَنبِجٍ يَطرَحنَ أَيدِيَها بِحِصنِ الرّانِ

12 – وَفَوارِسٍ يُحَيي الحِمامُ نُفوسَها فكَأَنَّها لَيسَت مِنَ الحَيَوانِ

13 –ما زِلتَ تَضرِبُهُم دِراكاً في الذُرى ضَرباً كَأَنَّ السَيفَ فيهِ اِثنانِ

14 – يغشـاهُمُ مَطَرُ السَحابِ مُفَصَّلاً بِمُثَقَّفٍ وَمُهَنَّدٍ وَسِنانِ

(1) هو ميل الشخص إلى أن يعزو إلى العالم الخارجي العمليات النفسية المكبوتة جهلًا منه بأنها خاصة به، أو تهرباً من الاعتراف بها، أو تخفيضاً لما يشعر به

حدد بيرلمان (حجــة آد برســونام)[1] بأنها إجراء حجاجــي يرتكز على الهجوم الشــخصي ؛ لأجل التهوين من قيمة الخصم،كما حدد (حجــة آدهومنيم)[2] بعدِّها مفهوما واسعا يشمل كل الحجج بما ذلك الحجج التي تخاطب السامع الكليّ وحجج آدهومنيم القائمــة على تناقضات الخصم (مشــبال، 2019: 203 – 204)، فالبلاغة الكلاسيكية، ولنقل البلاغة العربية بالتحديد تحدثت عن الخطيب الحقيقي، أو لنقل بتعبير المتنبي القائد الحقيقي بعدِّه قائدًا سياســيا يتصف بالحكمة والمعرفة، ويجســد الاخلاق التي يرغب فيها المجتمع؛ إنه الشــخص الذي نثق بقدراته على التعبير عن قيمنا المشــتركة، ويتحدث باســمنا وهذا ما فعله المتنبي أنه التصور الأساس للقائد المثــالي، وقد أجاد المتنبي في عرض هذه التصورات البلاغية التي يتكأ فيها على مخزن الحجج اللغوية التي تحويها خزاناته الفكرية واللغوية متســلحا بالبعد الأيديولوجي المعتزلي مع نرجســية الشاعر الذي ينظر الى نفسه فوق الكل بعد هذا التنظير المعرفي، لنقرأ ما قال المتنبي في المقطع الثاني.

التطابق بين التــركيبين الشــرطيــين في آخر بيت من المقطع الأوّل والبيت الثاني من المقطع الثّــاني (لــولا... لــكــانَ...)=(لــولا... لــكــُــنّ...) ؛لأنّ كِلَيْــهِــمَــا قائم على العلاقة بــين الامتناع والوجوب، إذ يمتنع فيهــما الجزاء لوجوب الشّرط (وجــوب الشّرط هو المحدّد لامتناع الجزاء) وهذه الاســتراتيجية يمكن أن تندرج فيها المفاهيم على اختلافها، وقد أنهى الشهري في دراسته عن مفهوم الاستراتيجيات الخطابية إلى هذا التعريف بقوله: ((الاســتراتيجيات الخطابية هي المسلك المناسب

(1) حجة تقوم على سب الخصم وشتمه ويحددها بعضهم بأنها تقوم على مهاجمة شخص بناء على أن أقواله ومواقفه تتحكم فيها مصالح شــخصية، وتشير عند بيرلمان إلى الاجراء الذي يرتكز على التهوين من قيمة الخصم.

(2) الحجة التي توجه إلى السامع الخاص وتعتمد الرأي المتفق عليه بين الذوات المتفاعلة.

الذي يتخذه المترســـل للتلفظ بخطابه، من أجل تفنيذ إرادته والتعبير عن مقاصده، التي تؤدي إلى تحقيق أهدافه، عبر اســـتعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية، وفقًا لما يقتضيه سياق التلفظ بعناصره المتنوعة ويستحسنه المرسل)) (الشهري، 2004: 62)، وإذا أجاز لنا أن نستعمل لفظ الاستراتيجية لوصف الوسائل الإقناعية الثلاث التي تحدّث عنها أرســـطو (اللوجوس، الإيتوس،الباطوس)، فإننا نلاحظ أنها تستجيب لها جميعا ؛ فهذه الوسائل تتناول موقفًا يتســـم بالاحتمال وعدم اليقين، كما أنها تروم هدفا يتمثل في التأثير في الغير، وينبغي التذكير أن مشـــيل فوكو حدد الاســـتراتيجية بـــ ((الطريقة التي نحاول التأثير بها على الغير)) (الشهري، 2004: 55) وقد نحتاج إلى توضيح اســـتراتيجية اللوجوس التي تعني ببساطة استخدام الطرائق العقلية أو الموضوعية، كما في الاجراءين الاســـتدلالين البلاغيين اللذين وقف عليهما أرسطو: القيـــاس المضمر والمثال، او في مجموعة من التقنيـــات الحجاجية التي صنّفها بيرلمان في خطاطته إلى صنفين الفصل والوصل، ولا ننســـى أن غايـــة الحجاج عند بيرلمان هي أن تذعن العقـــول لما يطرح عليها، ((غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطـــرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الاذعان، فأنجع الحجاج ما وُفِّق في جعل حدَّة الاذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الامســـاك عنه،أو هو ما وُفِّق في الأقل في جعل الســـامعين مهيئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة)) (صولة، 2007: 27)، من هذا التحديد يمكننا أن نقول: إنّ غاية الحجاج عند المتنبـــي هو جعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء ؛لـــذا وجدناه ,وإن كان هناك تراجع عن المنطلقات التي رســـخها في المقطع الاول، التي يرى أن الرأي أو العقل يتفوق على القوة، وقد استطاع أن يجمعهما ؛لينتج حجة أقوى وانجع من انفرادهما، لكن هذا الميل نجده يضعف في المقطع الثاني ؛ لأن محاولة الاســـتدلال على صدق الحقيقة الذاتية بالحجة الافتراضية والحجة الافتراضية إذا لم

تدعمها حجج أخرى تُبْقِي حقيقة أفضليّة العقل أو تقديمه في حدود عالم الإمكان فيَضعف عندئذٍ الاستدلال، وينفتح للقوة مجال للتفوق على العقل ويَنْهَار المنطلقُ النظري، الذي انطلق منه المتنبي، وهذا ما يلاحظ في المقطع الثاني الذي يحوم حول مركزية القوة كأن موضوع العقل انتهى بانتهاء المقطع الاول، وإن كان البيت الاول منه كأنه يكمل المقطع الاول إذ يقول الواحدي في شرح هذا البيت)): إنَّما تتفاضل نفوس الحيوان بالعقل فالآدمي أفضل من البهيمة لعقله ثُمَّ بنو آدم يتفاضلون أيضا بالعقل.... ولولا العقل ما عرفت الايدي تدبير الطعان بالرماح يريد أن الشجاعة إنما تستعمل بالعقل)) (ديوان المتنبي: 847) هذا الربط بين المقطعين يُشير إشارة واضحة إلى أن في التراث العربي مفاهيم كاملة عن معايير النّص التي اكتشفت مؤخرا في الغرب وقد نوهنا في المقطع الاول إلى نص نفيس للقرطاجني الذي يصطلح على مفهوم المقطع الفصل، عاد لقدم حقيقية حسيّة مدركة لدى المخاطب، إنّ استعمال الرماح بالأيدي كانت من نتاج العقل ولولا العقل لم تستخدم الأيدي الرماح، وهذه المقدمات التي يتكَّيف المتنبي بها مع مخاطبه نجد لها صدى عند بيرلمان في الأقل من وجهة نظر الباحث، إذ يرى بيرلمان ((تردُّ نجاعة الخطاب الحجاجي إلى التوافق الذي يجب أن يحصل بين باث الخطاب ومتلقيه، فكلما كان التوافق بين الطرفين تاما، كان نفوذ الخطاب أتم، وكلما كان التوافق بين الطرفين ناقصا كان نفوذ الخطاب وسلطانه أنقص)) (الشعبان، 2010: 233) هذا الطرح الحجاجي التنظيري الذي قال به بيرلمان نجد له صدًى تطبيقيا عند المتنبي.

المتنبي في قصيدته هذه وكل شعره تقريبا جعل الرافد اللغوي بجميع حقوله وبجل فروعه وأصوله رافدًا مركزيا على آرائه به يُحتج، ومن خلاله يستدل، وهذا الاعتبار الذي يصيّر اللغة مخزنا تجمَّع داخله الحجج، هذا يقودنا الى مفهوم الموضع الذي عدَّه بيرلمان واحدا من منطلقات الحجاج، وقبل الذهاب إلى ما يقوله بيرلمان

ناقلا هذا المصطلح عن أرسطو نجد هذا المفهوم ومصطلحه قابعا في التراث العربي، بل إنّ كتاب سيبويه يُذكر به مئات المرات هذا المصطلح وبالمفهوم نفسه ((تقول: هذا رجلٌ ضَربَنَا، فتَصف بها النكرة، وتكون في موضع ضاربٍ إذا قلت هذا رجلٌ ضارب)) (سيبويه: 1/ 58)، وفي مكان آخر يتكلم سيبويه على الموضع أو المعنى ((وقد يكون لكاَنَ موضعٌ آخَرُ يُقتصَرُ على الفاعل فيه تقول: قد كان عبدُ الله، أي قَد خُلِق عبدُ الله. وقد كان الأمرُ، أي وقعَ الأمرُ. وقد دام فلانٌ: أي ثبت)) (سيبويه: 1/ 105 – 106)، وقد يذكر الموضع اكثر وضوحا عندما يتكلم على موضع الرفع ((وذلك قولهم ما أتاني إلا أنّهم قالوا كذا وكذا، فأَنَّ في موضع اسم مرفوع كأنه قال: ما أتاني إلا قولُهم كذا وكذا. ومثل ذلك قولهم: ما مَنَعَني إلاّ أنْ يَغضب عليّ فلانٌ. والحجةُ على أنّ هذا في موضع رفع)) (سيبويه: 3/ 248) وفي الكتاب من هذا الكثير ذكرته لتأصيل مفهوم المصطلح بالتراث، ولا يخفى على أحد تمكن المتنبي من اللغة وإجادتها لها سليقةً.

وعوداً على بدءٍ، إنَّ تحديد الوقائع بما هي مشتركات تؤازر المسار الحجاجي وتقويه، أنها ترتبط فيما بينها ارتباطا تتداعى حلقاته تداعي انتشار، فإثبات المقام يدلّ على ذلك الحضور القوي للحقل المعجمي الخاص بالمقام: (قصر عن مداه، مداه، العلى، العادات، الأوطان. مظفر، أهل الزمان، أهل كل زمان)، لقد اجتمع الرأي والشجاعة كلاهما في نفس الممدوح الحرّة فكان من الطبيعي أن تبلغ من العلياء كل مكان؛ ولئن جاءت الحقول المعجمية منسجمة مع الثنائية المفتاحية، فإن ظاهرة التضاد في المقطع الثاني هي الأخرى منسجمة مع تلك الثنائية، فالثنائيات: (سيوف/ أجفان)، و(أرجلها/ أيديها)، و(منبج/ الران) ليست متناقضة، بل تشكل إشارة تكامل، ولكن الثنائية المفتاحية أقامت تضادا يخدم أطروحة (اجتماع الرأي والشجاعة) في نفس حرة، إن غياب (الاجتماع) يجعل من السيف حقنا، أما حضوره

فيضع السيف في الموقع الضدي من الجفن، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كل من ثنائية (أرجلها/ أيديها) و(منبج/ الران) إذ أخرج الاجتماع هاتين الثنائيتين من وضعية التكامل إلى وضعية التباعد والتضاد. وهذا ما جعل التضاد تضادا وظيفيا هادئا، وكما نقل (اجتماع الرأي والشجاعة) هذه الثنائيات من التكامل إلى التضاد، فإنه قد تقل ثنائية (البعيد لا تساوي القريب) من التضاد إلى الترادف، وأن يكون «كل البعيد له قريبا دانيا « يعني أن سداد رأيه وقوة شجاعته قد أعادا تشكيل الواقع ومن خلفه اللغة، ويمثل هذا إشارة ليس إلى قوة الأطروحة التي تبنّاها الشاعر في المقطع الأول فحسب، بل إلى مدى تحققها على أرض الواقع أيضا، ومن خلال الممدوح سيف الدولة الحمداني, ولئن دلّ التشكيل المعجمي لهذا المقطع على شيء، فإنّما يدلّ من انسجامه مع التشكيل الإيقاعي على شعرية رائعة كان يتمتع بها أبو الطيب المتنبي.

إنَّ جعل المنطلقات الحجاجية منطلقات تتوافق فيها الافتراضات والوقائع والقيم والمواضع مع محصولات التأويلية التي يرمي الشاعر إلى بلوغها وترسيخها حقائق ينظم بها تصوراته، المعنى والعالم مرتهن بطرائق تحقق تلك المنطلقات شكلا ومحتوى (الشعبان، 2010: 255)، إن مبدأ اختيار المنطلقات (المشهور المشترك) حتى لا يحصل تنازع بين طرفي الحجاج المتكلم والمخاطب الخاص أو الكوني، وقد تجلّى هذا المبدأ في الحضور القويّ للحقل المعجمي الخاص بالمقام الذي عرضناه سابقًا , وقد جنح المتنبي في قصيدته هذه وفي جميع قصائده تقريبا إلى جعل الرافد اللغوي رافدًا مركزيا يجعله على مزاعمه برهانا ولاستعاراته بيانًا به يُحتج ومن خلاله يستدل (الشعبان، 2010: 257).

إنَّ توافق الحجة مع حقلها ومجالها، يحدث في المتلقي ضربا من التجانس العقلي والتوافق المقامي كما يقوي في دواخل المتلقي الإذعان، وهذا ما أراد إيصاله الشاعر،

وهذا يقودنا إلى أن فكرة الحجاج بمنطلقاته التي عرضها بيرلمان لها جذور في التراث، لكن ينقصها الدراسة والتجميع وإعادة القراءة ضمن منهج يسمح لها الخروج بحلة جديدة، وبأدوات معرفية حديثة كما فعل بيرلمان بخطابة أرسطو.

المقطع الثالث:

15 – رَفَعَت بِكَ العَرَبُ العِمادَ وَصَيَّرَت قِمَمَ المُلوكِ مَواقِدَ النيرانِ

16 – أَنسابُ فَخرِهِم إِلَيكَ وَإِنَّما أَنسابُ أَصلِهِم إِلى عَدنانِ

17 – يا مَن يُقَتِّلُ مَن أَرادَ بِسَيفِهِ أَصبَحتُ مِن قَتلاكَ بِالإِحسانِ

18 – فَإِذا رَأَيتُكَ حارَ دونَكَ ناظِري وَإِذا مَدَحتُكَ حارَ فيكَ لِساني

لم يخلُ بيت من أبيات المقطع الثالث من صور بيانيّة تُسهم في جلاء قصديّة الشاعر، وتشكل جزءا من التعبير عن الدلالة العامة التي ينهض بها المقطع، فالبيت الأوّل من هـذا المقطع كناية عن الدور الخطير الذي يؤديه سـيف الدولة في حياة العرب، فهو حامي الثغور، وحارس البوابات المفضية إلى أرض المسـلمين،أما البيت الثاني فقد تضمّن اسـتعارة عبر إضافة كلمة (أنسـاب) إلى كلمة (فخرهم)، فقد أسبغت هذه الإضافة على (الفخر) هوية لم تكن له في الواقع جعلته أصلا يتحدر الناس منه، وهذا كفيل بأن يوحي للمتلقي بأنّ أمجادا أسـطورية قد حازها الممدوح (سـيف الدولة) بما يجعله أصلا لكل مفخرة قد ينالها بنو قومه العرب، ولا يقلّ إسـناد الفعل (حارّ) إلى كل من (ناظري) الشـاعر و (لسـانه) وظيفيّة عن الاستعارة السابقة ارتقى هذا الفعل الفاعلين من هويتيهما الموضوعيتين ؛ ليسبغ عليهما هوية بشرية تجعل من تأثير الحيرة تأثيرا أقوى، ومن موضوع الحيرة موضوعا غير قابل للسبر، فقد قدّم التصوير الممدوح في هذا البيت أسـطورة لافتة للانتباه مثيرة للتعجب، وهذا أقصى المدح في نظر الشعريّة العربيّة القديمة.

الخاتمة:

إنَّ جعل المنطلقات الحجاجية منطلقات تتوافق فيها الافتراضات والوقائع والقيم والمواضع مع محصولات التأويلية التي يرمي الشـــاعر إلى بلوغها وترسيخها حقائق ينظم بها تصوراته، المعنى والعالم مرتهن بطرائق تحقق تلك المنطلقات شكلا ومحتوى.

إنّ مبدأ اختيار المنطلقات (المشـــهور المشـــترك) حتى لا يحصـــل تنازع بين طرفي الحجاج المتكلم والمخاطب الخاص أو الكوني، وقد تجلّى هذا المبدأ في الحضور القويّ للحقل المعجمي الخاص بالمقام الذي عرضناه ســـابقًا، وقد جنح المتنبي في قصيدته هذه وفي جميع قصائده تقريبا إلى جعل الرافد اللغوي رافدًا مركزيا يجعله على مزاعمه برهانا ولاستعاراته بيانًا به يُحتج ومن خلاله يستدل.

إنَّ توافق الحجة مع حقلها ومجالها، يحـــدث في المتلقي ضربا من التجانس العقلي والتوافق المقامي كما يقوي في دواخل المتلقي الإذعان، وهذا ما أراد إيصاله الشاعر، وهذا يقودنا إلى أن فكرة الحجاج بمنطلقاته التي عرضها بيرلمان لها جذور في التراث، لكن ينقصها الدراسة والتجميع وإعادة القراءة ضمن منهج يسمح لها الخروج بحلة جديدة، وبأدوات معرفية حديثة كما فعل بيرلمان بخطابة أرسطو.

روافد البحث:

- بنو هاشـــم، د. الحسين. نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب، الجديدة، بيروت – لبنان،ط1، 2014 م.
- ديـــوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الامام الواحـــدي: تحقيق عمر فاروق الدباغ، دار الأرقم بن أبي الارقم، بيروت –لبنان،ط1.
- الشعبان، د. علي. الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، دار الكتاب الجديد، ط1، 2010م.
- الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب المتحدة،ط2004،1م.
- صولـــة، عبد الله. الحجاج في القـــرآن من خلال أهم خصائصه الاســـلوبية، دار الفارابي، بيروت –لبنان، ط2، 2007م.
- علوي، د. حافظ. الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة).
- القرطاجني، حازم. منهاج البلغـــاء وسراج الأدباء، تحقيق, محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، – لبنان, ط3، 1986م.
- مشبال، د. محمد. في بلاغة الحجاج (نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات)، كنوز المعرفة، ط1، 2017م.